ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

بداية هذه الآية تقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » وهى تأتى بعد آية أحلّت أشياء ، كأن الحق يقول للعبد : مادمت قد أعطيت فأنا أمنع عنك ؛ أعطيتك أشياء وأمنعك أشياء . وسبحانه حين يحظر على الإنسان شيئاً ويمنعه منه ؛ فهو يعطى هذا الشيء لأخ مؤمن ، ومادام الأمر كذلك فلا يستطيع ولا يصح أن تنظر إلى الشيء المسلوب منك فقط بل انظر إلى المسلوب من غيرك بالنسبة لك .

وعلى سبيل المثال حين يأمرك الحق : « لا تسرق » ، فأنت شخص واحد ، ويقيد سبحانه حريتك بهذا الأمر ، وقيد فى الوقت نفسه حرية كل الناس بالنسبة إليك . وعندما تقارن الأمر بالنسبة لنفسك تجد أنك المستفيد أساساً ؛ لأن كل الناس ستطبق حكم الله بألا يسرقوا منك شيئاً ، وفى هذا خدمة لكل عبد . وهب أن واحداً سرق ، إنه لن يستطيع أن يسرق من كل الناس . ولو سرق ألف من الناس شخصاً واحداً فما الذى يبقى له ؟!

وحين يأمر الحق العبد ألا ينظر إلى محارم غيره ، فظاهر الأمر أنه تقييد لحركة

العبد ، لكن الواقع أنه سبحانه قيد حركة الناس كلها من أجل هذا العبد ، وأمرهم ألا ينظروا إلى محارم غيرهم .

إذن ساعة ترى أيها المسلم نهياً أمر به الله ، فلا تصب النهى عليك . ولكن صب النهى أيضا على كل الناس بالنسبة لك . وساعة يقول الحق: «ياأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » أى لا تجعلوا شعائر الله حلالاً . والشعائر هى معالم الدين كلها . ونقول « هذه الدولة شعارها النسر » معنى ذلك أننا إذا رأينا الشعار نعرف البلد . وكذلك أعلام الدول ، فهذا علم لمصر ، وذاك علم لانجلترا ، وثالث علم لفرنسا ، وكل محافظة فى مصر ـ على سبيل المثال ـ تضع لنفسها شعاراً وعلماً ، إذن فالشعار هو المَعْلَم الذى يدل على الشيء . وشعائر الله هى معالم دين الله المتركزة فى « افعل » و« لا تفعل » زماناً ومكاناً ، عقائد وأحكاماً .

لكن الشعائر غلبت على ما نسميه مناسك الحج ، وأول عملية فى مناسك الحج هى الإحرام ، أى لا تهمل الإحرام . ومن شعائر الحج الطواف ، فلا تحل شعائر الله ، ووجب عليك أن تطوف حول البيت ، وكذلك السعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات ، ورمى الجمار ، كل هذه شعائر الله التى أمر ألا يحلها المؤمنون ، أى أمر ـ سبحانه ـ ألا يتهاونوا فيها ؛ لأن هذه الشعائر هى الضابط الإيمانى . وأن ننظر إلى أن أمر الله لكل حاج أو معتمر بالإحرام هو أمر بالعزلة لبعض الوقت عن النعمة ؛ لأن الإنسان يذهب للحج فى رحلة إلى المنعم . وأن الإنسان يغير ملابسه بملابس موحدة ولا يتفاضل فيها أحد على أحد ؛ لأن الناس فى الحياة اليومية تتفاضل بهندامهم ، وتدل الملابس على مواقعهم الاجتماعية . وعندما يخلعون جميعاً ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً ، تكون السمة المميزة هى إعلان الولاء لله .

وكذلك عندما يأتى الأمر بألا يقص الإنسان شعرة منه سواء أكان عظيماً فى مجتمعه أم فقيراً ويتراءى الناس جميعاً وينظر بعضهم إلى بعض فيجدون أنهم على سواء على الرغم من اختلاف منازلهم وأقدارهم وتكون ذلة الكبير مساوية لذلة الصغير . وذلك انضباط إيمانى لا بين الإنسان والمساوى له ، ولكنه الانضباط مع الكون كله ، بكل اجناسه . فالشجرة بجانب الحرم محرم على كل إنسان أن يقطعها أو يقطع جزءا منها . وبذلك يأمن النبات فى الحرم ، وكذلك الحمام والحيوانات وأيضاً يأمن

الإنسان ؛ لأن الجميع فى حَرم رب الجميع ، وتلك مسألة تصنع رعشة ورهبة إيمانية فى النفس البشرية . وتكون فترة الحج هى فترة الانضباط الإيمانى . وتتوافق فيها كل أجناس الوجود . فالإنسان يتساوى مع الإنسان ولا يلمس الحيوانَ وكذلك النباتَ ، ويبقى الجماد وهو خادم الجميع من أجناس الكون ؛ لأن الحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الحيوان ، والجماد يخدم الكل ، وهو خادم غير مخدوم . ويصنع الحق حماية للجماد فى الكعبة نفسها ، فيأمر الناس باستلام الحجر الأسود أو بتقبيله إذا تيسر ذلك أو بالإشارة إليه .

فهذا السيد العالى ـ الإنسان ـ على النبات والحيوان يأتى إلى جماد فيعظمه ويوقره ، فالذى لا يستطيع تقبيل الحجر الأسود عليه تحيته بأن يشير إليه بيده ، حتى يكون الحج مقبولاً منه ؛ لذلك يتزاحم الناس للذهاب إلى الحجر الأسود ، وهكذا يكون الجماد مصوناً فى بيت الله الحرام . ويعوضه الله بأن جعله منسكاً ، وجعله شعيرة وجعل الناس تزدحم عليه وتقبله بينما لا يقبل الإنسان الحيوان أو النبات ، لكنه يقبّل الجماد أدنى الأجناس . وهذه قمة التوازن الوجودى . فالإنسان المختار المتعالى على الأجناس يذهب صاغراً لتقبيل أو استلام الحجر الأسود بأمر الله .

ويرجم الإنسان حجراً آخر هو رمز إبليس ، وذلك حتى يعرف الإنسان أن الحجرية ليست قيمة فى حد ذاتها ، ولكنها أوامر الآمر الأعلى ، حتى لا يستقر فى ذهن الإنسان تعظيم الحجر ، فالحاج يقبل حجراً ويرجم ويرمى حجراً آخر .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » ؛ لأن الله جعل الشعائر لتحقق الانضباط الإيمانى ، وبقاء ذكر الاستخلاف لله فلا يدعى أحد أنه أصيل فى الكون ، بل الكل عبيد لله . والوجود كله هو سلسلة من الخدمة ؛ فالإنسان يخدم الإنسان ، والحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الإنسان والحيوان ، والجماد يخدم الكل ؛ لكنْ لا أحد أفضل من أحد ، بل الجماد نفسه مسبح بحمد الله ، وقد لا يسبح الإنسان .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وهذا الأمر بعدم الحل لشعائر الله جعل كل شعيرة تأخذ حقا من التقدي والاحترام ، ولا يظنن ظان أن شعيرة من الشعائر ستأخذ لذاتها تقديساً ذاتياً ، بل كله تقديس موهوب من الله ويسلبه الله .

« لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام » أى لا تحلوا الشهر الحرام ، أى عليكم أن تحرموا هذا الشهر الحرام ، فقد جعله الله شهراً حراماً لمصلحة الإنسان ، ويحمى ب سبحانه عزة وذلة الإنسان أمام عدوه ، يحمى انكسار نفس الضعيف أمام القوى . فالقوىّ القادر على القتال قد تهفو نفسه إلى أن يتوقف عن الحرب فترة يلتقط فيه الأنفاس ، ولو فعل ذلك لكان إعلاناً للتخاذل أمام الخصم ، ولذلك يأتى الحق بزمان يقول فيه : أنا حرمت الحرب فى الأشهر الحرم . هنا يقول المقاتل : لقد حرم الله القتال فى الأشهر الحرم ، وتلك حماية للإنسان ، وليذوق لذة الأمن والسلا والطمأنينة ؛ فقد يعشق الإنسان القوى السلامَ من بعد ذلك .

لماذا إذن جاء الحق هنا بالشهر الحرام بينما نحن نعرف أن الأشهر الحرم أربعة ؟ إذ نظرنا إلى الأشهر الحرم كجنس فهى تطلق على كل شهر من الشهور الأربعة ، وإذ اعتبرنا الشهر الحرام أشهر الحج وهى شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ، فالمعنى صحيح ونعرف أن الأشهر الحرم أربعة ، ثلاثة متصلة ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد منفصل هو رجب ، وسبحانه وتعالى يعلم أن كل فعل من الأفعال لابد له من زمان ولابد له من مكان . فحين لا يوجد حدث ، لا يوجد زمان ولا مكان ، ولم يأت الزمان والمكان إلا بعد أن أحدث الله فى كونه شيئاً . ولا يقولن واحد : متى كان الله ولا أين كان الله ؛ لأن « متى » و« أين » من مخلوقات الله . وجعل سبحانه لكل حدث زماناً ومكاناً . ولذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليحمى عزة الناس وليجعل لهم من تشريعه الرحيم ستاراً يستتر فيه ضعيفهم ، ويراجع فيه قويُّهم لعله يرعوى ويرجع عن غيّه وظلمه فأوجد أماكن محرمة ، وأزمنة محرمة ، والأماكن المحرمة هى التى عند الحرم :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

حيث يُؤَمِّن الإنسان أخاه الإنسان إذا ما دخل الحرم . وكذلك فى الزمان جعل سبحانه الأشهر الحرم .

لقد أخذ الحق الحدث للزمان والمكان . وكان القوى قديماً يحارب ويقترب من النصر . وعندما يهل الشهر الحرام يستمر فى الحرب ، ثم يعلن أن الشهر الحرام هو الذى سيأتى بعد الحرب ، ولذلك يأمر سبحانه بعدم تغيير زمان الشهر الحرام ؛ لأن الله يريد بالشهر الحرام أن ينهى سعار الحرب .

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا الهدى » والهدى هو ما يهدى إلى الحرم ؛ وهو جمع هدية ، وهناك من يقدم للكعبة هدية ، ومجموع الهدايا تسمى هدياً . وهدى الحرم إنما جعله الله للحرم ؛ فالحرم قديماً كان بوادٍ غير ذى زرع ، ولم تكن به حيوانات كثيرة . وكانوا يأتون بالهدى معهم عندما يحجون ، لذلك حرم الله الاقتراب من الهدى لأنها هدايا إلى الحرم . والحجيج أفواج كثيرة ، وعندما يأتى أناس كثيرون فى وادٍ غير ذى زرع يحتاجون إلى الطعام ، ولا يصح أن يجعل المؤمن الهدى لغير ما أهدى إليه ، فقد يشتاق إنسان صحب معه الهدى إلى أكل اللحم وهو فى الطريق إلى الكعبة فيذبحه ليأكل منه ؛ وهذا الفعل حرام ؛ لأن الهدى إنما جاء إلى الحرم ويجب أن يُهدى ويقدم إلى الحرم . وعلى الإنسان أن يصون هدى غيره أيضاً .

« ولا القلائد » وهى جمع « قلادة » والقلادة هى ما تعلق بالرقبة . وقديماً كان الذاهب إلى الحج يخاف على الهدى أن يشرد منه ، لذلك كانوا يضعون حول عنق الهدى قلادة حتى يعرف من يراه أنه « هدى » ذاهب إلى الحرم . والهدى الأول هو الهدى العام الذى لا قلائد حول عنقه ، والقلائد تعبر عن الهدى الذى توجد حول رقابه قلائد وتدل عليه وتكون علامة على أنه مهدى إلى الحرم ، وقد يكون النهى هنا حتى عن استحلال القلادة التى حول رقبة الهدى حتى لا تضيع الحكمة . والحق سبحانه وتعالى حين يعبر بعبارة ما فهو يعبر بعبارة تؤدى المعنى ببلاغة .

وكانوا قديماً عندما لا يجدون قلادة يأخذون لحاء الشجر وقشره ويقطعون منه قطعة ويربطونها حول رقبة الهدى ، وذلك حتى يعرف الناس أن هذا هدى ذاهب إلى الحرم . ويضمن سبحانه اقتيات الوافد إليه . لا من القوت العادى ولكن يطعمه من اللحم أيضاً ، ويجعل ذلك من ضمن المناسك . أليس هو من دعا هؤلاء الناس إلى الحج ؟ أليس هؤلاء هم ضيوف الرحمن ؟!

إن الإنسان منا يقوم بذبح الذبائح لضيوفه ، فما بالنا بالحق الأعلى سبحانه

وتعالى ؟ لذلك جعل الهدى طعاماً لضيوفه . وتزدحم الناس فى منى وعرفات بكثر لا حدود لها ، ولابد أن يكرمهم الله بألذ وأطيب الطعام ، والفقير يذهب إلى المذبح ويأخذ من اللحم أطيبه ويقوم بتجفيفه فى الهواء والشمس ويخزنه ليطعم منه طويلا وهو ما يعرف ويسمى بالقديد . والحق سبحانه وتعالى يأتى بالحكم بطريقة لها منتهى البلاغة ، فهو يحرم حتى قلادة الهدى أن يلمسها أحد .

ويقول سبحانه : « ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمّين البيت الحرا يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً » أى لا تمنعوا أناساً ذاهبين إلى بيت الله الحرا ولا تصدوهم عن السبيل ، فهم وفد الله . وقد جاء هذا القول قبل أن يُنَزِّل الحق قوله :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وكان غير المسلمين يحجون بيت الله الحرام من قبل نزول هذه الآية ، فلم يكن الحكم قد صدر . ونتساءل : هل الكافرون بالله يبتغون فضلاً من الله.؟. نعم ففضل الله يغمر الجميع حتى الكافر ، لكن رضوان الله لا يكون على الكافر . والفضل من التجارة التى كانوا يتاجرون بها ، وفضل الله موجود حتى فى أيامنا هذ على الكفار أيضاً .

لكن كيف يتأتى رضوان الله على الكافر ؟. إنه رضوان الله المتوهم فى معتقدهم فهم يعتقدون أنهم يفعلون ذلك إرضاء لله . وتتجلى دقة القرآن حين يقول : « فضلا من ربهم ورضوانا » ، فلم يقل : فضلاً من الله ورضواناً ؛ لأن العبد المؤمن هو من يختص بتنفيذ التكاليف الإيمانية .

ولله عطاءان : عطاء الربوبية ، فهو المربى الذى استدعى إلى الكون المؤمن والكافر ـ وسبحانه ـ سخر الأسباب للكل ؛ هذا هو عطاء الربوبية ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والأسباب قد تعطى المؤمن والكافر ، أما عطاء الألوهية فيتمثل فى « افعل » و« لا تفعل » . ويقول الحق هنا : « يبتغون فضلاً من ربهم » . إذن فجناحا المنهج الإيمانى ـ افعل ولا تفعل ـ ليست فى بالهم . ومن بعد ذلك يقول الحق : « وإذا حللتم فاصطادوا » أى إذا انتهى الإحرام ، وبعد أن يخرج الحاج من الحرم ويتحلل من إحرامه فمن حقه أن يصطاد .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » وقبل أن ينزل تحريم زيارة المشركين للبيت الحرام كان من حسن المعاملة ألا يأخذ المؤمنون الكفار الذين يزورون البيت الحرام فيعتدوا عليهم انتقاماً لما فعله الكفار من قبل ؛ لذلك أمر الحق المؤمنين ألا يقولوا : ها هم أولاء قد جاءوا لنا فلنرد لهم الصاع صاعين مثلما فعلوا معنا فى صلح الحديبية عندما منعونا من البيت الحرام . لأنكم أيها المؤمنون قد أخذتم من الله القوامة على منهجه فى الأرض ، والقائم على منهج الله فى الأرض يجب ألا تكون له ذاتية ولا عصبية أسرية ، ولا عصبية قبلية ؛ لأنه جاء ليهيمن على الدنيا كلها ، ومن الصَّغار أن ينتقم المؤمن من الكافر عندما يأتى إلى بيت الله . ولا يليق ذلك بمهمة القوامة على منهج الله .

ولذلك قال الحق لرسوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحينما أمر الحق رسوله أن يحكم بين الناس فذلك الحكم يقتضى عدم تمييز المؤمن على الكافر ؛ لأن المسلمين هم القُوَّام ، وهم خير أمة أخرجها الله للناس كافة . ولو فهم الناس أن خير الأمة الإسلامية عائد عليهم لما حاربوها .

فنحن ـ المسلمين ـ لسنا خيراً لأنفسنا فقط ، ولكننا أمة لخير الناس جميعاً . ولذلك قال الحق : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى لا يصح أن يحملكم الغضب على قوم أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام عام الحديبية . وعندما يسمع الكافر أن الله سبحانه وتعالى يوصى من آمن به على من كفر به ماذا يكون موقفه ؟ إنه يلمس رحمة الرب . وفى ذلك لذع للكافر لأنه لم يؤمن ، لكن لو اعتدى المؤمن على الكافر رداً على العدوان السابق ، لقال الكافر لنفسه : لقد رد العدوان .

أما حين يرى الكافر أن المؤمن لم يعتد امتثالاً لأمر الله بذلك ، عندئذ يرى أن الإسلام أعاد صياغة أهله بما يحقق لهم السمو النفسى الذى يتعالى عن الضغن والحقد والعصبية ، ويعبر الأداء القرآنى عن ذلك بدقة ، فلم يأت الدين ليكبت عواطف أو

غرائز ولا يجعل الإنسان أفلاطونياً كما يدعون . ولم يقل : اكتموا بغضكم ، ولكن أوضح لنا أى : لا يحملكم كرههم وبغضهم على أن تعتدوا عليهم . فسبحانه لا يمنع الشنآن ، وهو البغض ، لأنه مسألة عاطفية .

فسبحانه يعلم أن منع ذلك إنما يكبت المؤمنين وكأنه يطلب منهم الأمر المحال . لذلك فالبغض من حرية الإنسان . ولكن إياك أن يحملك البغض أو الكره على أن تعتدى عليهم .

ونرى سيدنا عمر يمر عليه قاتل أخيه زيد بن الخطاب ، يقول له أحدهم : هذا قاتل زيد ، فيقول عمر : وماذا أصنع به وقد هداه الله إلى الإسلام ، فإذا كان الإسلام جبّ الكفر ألا يجب دم أخٍ لعمر ؟ ولكن عمر ـ رضى الله عنه ـ يقول لقاتل أخيه :

عندما ترانى نحّ وجهك عنى . قال ذلك لأنه يعرف دور العاطفة ويعرف أنه لا يحب قاتل أخيه ، فقال قاتل أخى عمر : وهل عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ فقال عمر : لا . بل تأخذ حقوقك كلها . فقال قاتل أخى عمر : لا ضير ؛ إنما يبكى على الحب النساء . فالإيمان هو الذى منع عمر من أن ينتقم من قاتل أخيه .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى أنه سبحانه لا يمنع مواجيد المؤمنين ووجداناتهم وضمائرهم وقلوبهم التى تنفعل بالبغض والكره ؛ لأنه يعلم أن ذلك لا يطيقه الإنسان ؛ لأنها أمور عاطفية . والعواطف لا يقنن لها بتشريع . ولكن اعلموا أن هذه العواطف لا تبيح لكم الاعتداء .

وهكذا يتدخل الإسلام فى الحركة الإنسانية ليفعل الإنسان أمراً أو يتجنب فعل أمر ما ؛ فالإسلام لا يتدخل إلا فى النزوع وهى تعبير عن مرحلة لاحقة للإدراك الذى يسبب للإنسان العاطفة محبة أو كراهية ، ثم يعبر الإنسان عن هذه العاطفة بالنزوع ؛ لأن مظاهر الشعور ثلاثة : إدراك ، ووجدان ، ونزوع ، فحين يمشى إنسان فى بستان فيه أزهار ويرى الوردة فهذا إدراك ، ولا يمنع الإسلام هذا

الإدراك . وعندما يعجب الإنسان بالوردة ويحبها فهذه حرية ، لكن أن تمتد اليد لتقطف الوردة فهذا ممنوع .

إن التشريع لا يتدخل فى العملية النزوعية فقط إلا فى مجال واحد وهو ما يتعلق بالمرأة . إن الإسلام يتدخل من أولى المراحل من مرحلةالإدراك . فالرجل حين يرى امرأة جميلة فهذا إدراك ، وعندما ينشغل قلبه بحبها فهذا وجدان ، لكن أن يقترب منها الإنسان فهذا نزوع .

لقد رأف الحق بالرجل أن أمره أن يغض البصر من البداية ؛ لأن الإنسان لن يستطيع مطلقاً أن يفصل بين الإدراك والوجدان والنزوع . فكل من الإدراك والوجدان يصنعان تفاعلاً فى التركيب الكيماوى للرجل . فإما أن يعف الإنسان نفسه ويكبت أحاسيسه ، وإما ألا يعف فيلغ فى أعراض الناس ، لذلك يخدم الشرع الإنسان من أول الأمر حين يأمره بغض البصر :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(سورة النور)

هنا يتدخل الشرع من أول مرحلة الإدراك ، فبعدها لا يمكن فصل النزوع عن المواجيد ؛ لأن رؤية المرأة تحدث تفاعلاً كيماوياً فى نفس الرجل ، وكذلك الرجل يحدث تفاعلاً كيماوياً فى نفس المرأة . أما الوردة فلا تحدث مثل هذا التفاعل . ويستطيع الإنسان اقتناء زهرية للورود .

إذن فالمراد أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع المؤمن أن تجيش عواطفه البشرية بالبغض وبالكره ؛ لأن ذلك انفعال مطلوب للإيمان . وبعض من أعداء الإسلام يقول : آيات القرآن تتعارض ؛ لأنه يقول :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا

ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

والنسب الإيماني يمنع ذلك .

ويقول القرآن في موضع آخر

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّ
مَعْرُوفًا ﴾ (من الآية ١٥ سورة لقمان)

والذى يتعمق جيداً يعرف أن المعروف يصنعه الإنسان مع من يحب ومن لا يحب . أما الودّ فهو عمل القلب ، وهذا ما نهى عنه الله بالنسبة للمشركين به . أما المعروف فالمسلم مطالب أن يفعله حتى بالنسبة لمن يكرهه .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » إذن فالحق لم يمنع البغض . ولكنه منع النزوع المترتب على الشنآن ولو وُجد سبب من الأسباب كم حدث في صلح الحديبية . وبعد ذلك يأمر : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

وهذه الآية هى التى تجعل مسألة الإيمان قضية عالمية ، وكلمة « تعاون » على وزن « تفاعل » ، والتفاعل يأتى من اثنين ؛ مثلما نقول « تشارك » ؛ فهى تقتضى اثنين ؛ كأن نقول : تشارك زيد وعمرو أو : شارك زيد عمراً أو شارك عمرو زيداً . وكلاهما متساو . . اللهم إلا تغليب واحد بأن يأتى فاعلا مرة ومفعولا مرة ثانية ، والفاعل في هذه الحالة فاعل ومفعول في آن واحد ، والمفعول أيضاً فاعل في الوقت نفسه .

ومثال ذلك قولنا « قاتل فلان فلاناً » أى أن الاثنين اشتبكا في قتال أى مفاعلة . وساعة يأتى اثنان في فعل واحد ، فهناك فاعل ومفعول . وهناك فرق بين أن تقول : أعن فلاناً ، فالمطلوب هنا أمر لواحد بالمعاونة لآخر .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهذا يختلف عن القول : تعاون مع فلان ، أى أن تتشاركا معاً فى المعاونة . ومسائل الحياة أكثر من أن تستوعبها موهبة واحدة . فأنت حين تبنى بيتاً تحتاج إلى من يحفر الأساس ويبنى الجدران . ومن يصنع الطوب ومن يصنع الأسمنت ومن يصنع الحديد ، ولا يستطيع إنسان واحد أن يتعلم كل هذه الحرف ليبنى بيتاً ، لكن التعاون خصص لكل إنسان عملا يقوم به ، فهناك متخصص فى كل جزئية يحتاج إليها الإنسان فى حياكة الملابس ، والطب ، والصيدلة وغيرها من أوجه احتياجات الحياة ، والحق يأمر : « وتعاونوا » ليسير دولاب الحياة ويستفيد الإنسان من كل المواهب لقاء إخلاصه فى أداء عمله ، و« تعاونوا » هى أن تأتى بشىء فيه تفاعل ما ، ومعنى الشىء الذى فيه تفاعل أنه يوجد « مُعين » و« مُعان » .

ولكن المعين لا يظل دائما معينا ، بل سينقلب فى يوم ما إلى أن يكون مُعانا ، والمعان لا يظل مُعانا ، بل سيأتى وقت يصير فيه مُعينا ، وهذا هو التفاعل الذى تحتاج إليه أقضية الحياة التى شاءها الله للإنسان الخليفة فى الأرض والمطالب أن يعبد الله الذى لا شريك له ، وأن يعمر هذه الأرض . ولا تتأتى عمارة الأرض إلا بالحركة فيها ، والحركة فى الأرض أوسع من أن تتحملها الطاقة النفسية لفرد واحد ، بل لا بد أن تتكاتف الطاقات كلها لإنشاء هذه العمارة .

إننا حين نبنى عمارة واحدة نستخدم أجهزة كثيرة لطاقات كثيرة بداية من المهندس الذى يرفع مساحة القطعة من الأرض ويرسمها ، وإن شاء الترقى فى صنعته يصنع نموذجا مجسدا لما يرغب فى بنائه ، وبعد ذلك يأتى الحافر ليحفر فى الأرض ، ثم من يضع الأساس ، ومن يضع الحديد . ومن يصنع « الخرسانة » المسلحة .

ثم يأتى من يرفع البناء ، ومن يقوم بالأعمال الصحية من توصيلات للمياه والمجارى ، ثم يأتى من يصمم التوصيلات الكهربائية ، وهكذا تتعاون طاقات كثيرة لبناء واحد ، ولا تتحمله طاقة إنسان واحد .

إذن فالتعاون أمر ضرورى للاستخلاف فى الحياة . ومادام الاستخلاف فى الحياة يقتضى من الإنسان عمارة هذه الحياة ، وعمارة الحياة تقتضى ألا نفسد الشىء الصالح بل نزيده صلاحا ، وحين يقول الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على

الإثم والعدوان » أي أنه يريد كوناً عامراً لا كوناً خرباً . والشيء الصالح في ذاته يبة
على صلاحه . إذن فعمارة الحياة تتطلب منا أن نتعاون على الخير لا على الإثم

والبر ، ما هو ؟ البر هو ما اطمأنت إليه نفسك ؛ والإثم ما حاك في صدر
وخشيت أن يطلع عليه أحد ، فساعة يأتي إليك أمر تريد أن تفعله وتخاف أن يرا
غيرك وأنت ترتكبه فهذا هو الإثم ؛ لأنه لو لم يكن إثماً لأحببت أن يراك الناس وأن
تفعل ذلك . إذن قوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإ
والعدوان » هو أمر لكل جماعة أن تتعاون على الخير ، وهذه مناسبة لأقول لك
جماعة :

تعاونوا معاً بشرط ألا تجعلوا لجمعياتكم نشاطاً يُنسب إلى غير دينكم . مثال ذلك
الجمعيات المسماة بـ «الروتاري» أو « الماسونية » ويقال : إن نشاطها خيري
ونقول : كل جمعية خيرية على العين والرأس ولكن لماذا تكونونها وأنتم تقلدون في
الغرب ؟ لماذا لا تصنعون الخير باسم دينكم فيعرف العالم أن هذا خير قادم من بلا
مسلمة . والخير كل الخير ألا نأخذ هذه الأسماء الأجنبية ونطلقها على جمعياتنا حـ
لا يظنن ظان أن الخير يصنعه غيرنا . وإن كان للواحد منا طاقة على العمل الخيري
فليعمل من خلال الدين الإسلامي . وليعلم كل إنسان أن الدين طلب منا أن تكو
كل حياتنا للخير . وهذا ما يجب أن يستقر في الأذهان حتى لا يأخذ الظن الخاطئ
كل من يصيبه خير من هذه الجمعيات بأن الخير قادم من غير دين الإسلام

إننا مكلفون بنسبة الخير الذي نقوم به إلى ديننا ؛ لأن ديننا أمرنا به وحثنا عليه
وليعلم كل مسلم أنه ليس فقيراً إلى القيم حتى يتسولها من الخارج ، بل في دي
الإسلام ما يغنينا جميعاً عن كل هؤلاء . وإذا كنا نفعل الخير ونقدم الخدمة الاجتماع
للناس فلماذا نسميها هذا الاسم وننسبها إلى قوم آخرين ، ولنقرأ جميعاً قول الحـ
سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت

فعلى الإنسان منا أن يعمل الخير وهو يعلن أن الإسلام يأمره بذلك ، ولا ينسـ

عمل الخير إلى « الروتارى » أو غير ذلك من الجمعيات . فنسبة الخير من المسلم إلى جمعيات خارجة عن الإسلام حرام على المسلم ؛ لأنه تعاون ليس لله ، والحق يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو يريد منا أن نبنى الخير وأن نمنع الهدم ، وعلى كل منا أن يعرف أنه لا يستطيع وحده أن يقيم كل أبنية الخير .

وقد نسأل الفقير صاحب الثوب الواحد من أين أتى برغيف الخبز ، فيشير إلى بقال أعطاه هذا الرغيف . ونلتفت إلى أن الله قد سخر هذا البقال أن يأتى بالخبز ليشترى منه كل الناس ، ويتصدق ببعضه على الفقير . وهذا تيسير أراده الله . وعندما نذهب إلى المخبز ، نجد أن الدقيق جاء إلى المخبز من المطحن ، وفى المطحن نجد عشرات العمال والمهندسين يعملون من أجل طحن الدقيق الذاهب للمخبز ليعجنه واحد ، ويخبزه آخر ، ويبيعه ثالث .

ويجب أن نلتفت هنا إلى قدرة الله الذى سخر بعضا من الممولين الذين فكروا فى خير أنفسهم واشتروا هذه الآلات الضخمة للطحين وإنضاج الخبز ، وهى آلات لا يستطيع الفرد أن يشتريها بمفرده ، لارتفاع ثمنها وتأتى من الدول الأجنبية ، وتلك الدول فيها من المعامل والعلماء الذين يدرسون الحركة والطاقة من أجل تصميم هذه الأجهزة ، ليأكل الإنسان رغيفاً واحداً .

هذه هى مشيئة الحق من أجل أن تنتظم كل حركة الحياة ؛ فالرغيف يعرضه البقال ، وعمل فيه الخباز ومن قبله الطحان ، والعجان ومن استورد الآلة ؛ ومن صممها ، وشاركت فيه المدرسة التى علمت المهندس الذى صمم الآلة ؛ كل ذلك عمل فيه تعاون من أجل خدمة رغيف الخبز ، على الرغم من أن الإنسان منا لا يفكر فى رغيف الخبز إلا ساعة أن يجوع .

إذن فحركة الحياة كلها تم بناؤها على التعاون . لكن ماذا إن تعاون الناس على الإثم ؟ إنهم إن فعلوا ذلك يهدمون الخير ؛ لأن التعاون على الإثم إنما يبدأ من كل من يعين على أمر يخالف أمر الله ، وأوامر الله تنحصر فى « افعل » و « لا تفعل » ، ما ليس فيه « افعل » و« لا تفعل » فهو مباح ، إن شئت فعلته وإن شئت لا تفعله .

والذى يأمر بتطبيق « افعل » ويحزم الأمر مع « لا تفعل » وينهى عنه ويجرّم من يفعله هو متعاون على البر والتقوى .

ومن يعمل ضد ذلك ؛ يتعاون على الإثم والعدوان ؛ لأنه ينقل الأفعال من دائرة « افعل » إلى دائرة « لا تفعل » . وينقل النواهى من « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » ؛ هذا هو التعاون على الإثم .

وقوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ضَمِن عمارة الكون وضَمِن منع الفساد فى الكون . فالذى يرتشى والذى يسهل عملية الرشوة ، وهو الوسيط والسفير بين الراشى والمرتشى ويُسمَّى الرائش والذى يحمل الخمر والذى يدلس ، كل هؤلاء متعاونون على الإثم والعدوان ، حتى البواب الذى يجلس على باب عمارة ويعلم أن بها شقة تدار لأعمال مشبوهة ويأخذ ثمن ذلك هو متعاون على الإثم .

نقول لكل هؤلاء : إياكم أن تفتنوا بما يدره عليكم فعل الإثم ؛ لكن لننظر مصير كل منكم فلن يترك الله أمثالكم دون أن ينهى الواحد منهم حياته بمأساة ، حتى المرأة التى استنزفت الناس بجمالها ، تنتهى حياتها بالضنك من العيش ثم لا تجد مأوى إلا القلوب الرحيمة التى لم تفتتن بهذا الجمال ولم تتمتع به فى الحرام ؛ لأن الرجل إن نظر إلى امرأة أعانته على الإثم سيتذكر كل المصائب التى جاءته منها فيكرهها .

لقد أراد الحق بهذا عدالة فى الكون ليستقيم ، وكل من يأخذ شيئا من إثم يكتوى بنار هذا الإثم فى الحياة ، وكل فرد فيكم مطالب بعمل حصر وإحصاء للمال الذى جاءه من عرقه وحلاله ويكتبه ، والقرش الذى جاءه من حرام . وبعد ذلك يقوم بعمل حصر وإحصاء للكوارث التى أصابته . وكم كلفته من مصاريف .

إنه لو فعل ذلك لوجد أن الكوارث تأخذ كل الحرام وتجور على المال الذى كسبه من حلال . ولا تختلف هذه المسألة أبداً ولا يتركها الله للآخرة ؛ فسبحانه يريد أن يعدل نظام الكون ، وإلا كيف يشهد من لا يؤمن بيوم الحساب قدرة الله على إجراء التوازن فى كونه ؟ إن الحق أراد الحساب فى الدنيا حتى لا يعربد من لا يؤمن بيوم الحساب فى كون الله .

إن كل معربد سوف يرى مصير معربد سبقه . كذلك الذين يتمتعون بثمرات الإثم فى هذه الدنيا يجب أن يفطنوا إلى نفوسهم قبل أن يفوتهم الأوان ، المعذور فقط هم الأطفال الذين لا نضج لهم ولا دراية ، لأنهم يعيشون من أموال الإثم . لكن ما إن يبلغ الولد الرشد وكذلك البنت ثم ترى مالا يتدفق عليها من مصادر غير حل ، عليها أن تستحى من شراء « فستان » من هذا المال أو أن تأكل منه لقمة خبز ، وليفطن الإنسان أن الله قد أباح للإنسان أن يسأل عن مصدر المال حتى لا يأخذ لنفسه من المال الموبوء الخبيث . وأن يسأل الإنسان الصدقة خير من أن يصرف على نفسه مالاً موبوءا . ولن يترك الحق مثل هذا الإنسان سائلا أبداً .

وليكتب كل واحد منكم هذا القول الكريم أمامه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وليجعلها ميزاناً يزن بها صور الذين يراهم فى الكون ؛ حتى ولو كانت صورة سائق التاكسى الذى يدلس على رجل وامرأة فى طريق مظلم ويأخذ أجراً على هذا ، ليحسب هذا الرجل النقود التى ستأتى من هذا الباب ، وليحسب النقود التى ستخرج على ألم فيه ، أو ألم فيمن يرعى من ولد أو بنت .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وصور العدوان شتى يعانى منها المجتمع وتهزه بعنف ، عدوان على الوقت لأن الإنسان يأخذ أجراً على العمل ولا يقوم به ، وعدوان يضرُّ به إنسانا بأن يأخذ حقه أو أن يرتشى ، كل ذلك عدوان . وحتى يصير المجتمع مجتمعا إيمانيا سليما لا بد أن يحافظ على قضية الاستخلاف فى الأرض ، وأن يعلم أن هذا يقتضى عمارة الكون وعدم الإفساد فيه .

« ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » فكأن هذه المخالفات السابقة التى تحدث هى نتيجة عدم التعاون على البر ، ونتيجة التعاون على الإثم والعدوان ، ولهذه المخالفة عقاب شديد ، أما التقوى فمعناها أن نفعل ما أمر به الله أن نفعله ، وأن ننتهى عما نهى الله عنه ، فلا ننقل فعلاً من دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » وكذلك العكس . وبذلك نجعل بيننا وبين الجبار وقاية .

وبعض السطحيين قد ينظر إلى بعض من آيات القرآن ويقول : إن بها تناقضاً ؛ فيقولون : بعض من آيات القرآن تقول : « اتقوا النار » ، وبعض الآيات تقول :

« اتقوا الله » فهل للنار وقاية ؟ وهل لله وقاية ؟ وهؤلاء لا يفهمون أن « اتقوا » تعنى : اجعل وقاية بينك وبين ما يؤذيك ويتعبك ، فـ « اتقوا الله » تعنى اجعل بينك وبين عقاب الله وقاية وهى الدرع التى يقيمها الإنسان بتنفيذ أوامر الله بـ « افعل » والامتثال لنواهي الله بـ « لا تفعل » .

وعندما تجعل بينك وبين الله وقاية ، فأنت تجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وهكذا تتساوى « تقوى الله » مع « اتقاء النار » .

ويذيل الحق الآية « إن الله شديد العقاب » . إنّ ما يجعل الناس تتهاون فى التعاون على البر ويجترئون على الإثم أنهم لا يجدون من مجتمعاتهم رادعاً ، ولو وجدوا الردع من المجتمع لحمى المجتمع أفراده من الإثم . وإن صار للمجتمع وعى إيمانى لقاطع المخالفين وأشعرهم بأنهم منبوذون ، وساعة يرى أمثال هؤلاء الناس أنهم منبوذون من المجتمع الإيمانى فهم يرجعون إلى المنهج الحق .

فما يغرى الناس على الجرائم الكبيرة إلّا تهاون المجتمع فى الجرائم الصغيرة . ولذلك يلفتنا الحق أنه لن يترك الأمر كما تركه بعض من خلقه ؛ لأن الخلق قد يجاملون وقد لا يقفون أمام ما يفعله بعضهم من آثام ، لكن الله شديد العقاب ، سيأتى العقاب فى وقت ليس للفرد فيه جاه من مال أو حسب أو نسب يحميه من الله ، فإن أطمعك ضعف المجتمع فى أن تتعاون على الإثم فعليك أن تخاف الله ؛ لأن عقابه شديد .

وكيف يأتى العقاب إلى المذنب ؟ لا نعرف ؛ لأننا لسنا آلهة ، ونجد العقاب يتسلل إلى المذنب فى نفسه كمرض مؤلم لا يصرف المذنب فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه ، أو يعالج من يحب . وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للآخرة بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أن يعرفها وهذه هى شدة العقاب .

وبعد ذلك يأتى الحق بأمر تحريم أشياء بعد أن حلل الله أشياء فى قوله : « أحلت لكم بهيمة الأنعام » . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين تخصيصا لما أحل من الأنعام . . فقد حلل الله من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر

اثنين . وألحق الرسول بها الظباء وبقر الوحش ، وكل ذات أربع من حيوان البحر ، وكان قول الله : « إلا مايتلى عليكم » مؤذناً بأن هناك تحريماً قادماً سيأتى ، ويبين الحق بالقرآن ما يحرمه الله :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

الآية تبدأ بقوله : « حرمت عليكم الميتة » ونلحظ أن البداية فعل مبنى للمجهول. على الرغم من أن الفاعل فى التحريم واضح وهو الله. ولم يقتحم سبحانه على أحد ، فالإنسان نفسه اشترك فى العقد الإيمانى مع ربه فألزمه ـ سبحانه ـ والعبد من جانبه التزم ؛ لذلك يقول الحق : « حرمت » ، حرمها سبحانه كإله وشاركه فى ذلك العبد الذى آمن بالله إلهاً .

والميتة هى التى ذهبت منها الحياة أو خرجت منها الروح بدون نقض للبنية ، أى ماتت حتف أنفها ، فذهاب الحياة له طريقان : طريق هو الموت أى بدون نقض بنية ، وطريق بنقض البنية ؛ فعندما يخنق الإنسان كائنا آخر يمنع عنه النفس وفى هذا إزهاق للروح بنقض شىء فى البنية ؛ لأن التنفس أمر ضرورى ، وقد يزهق الإنسان

وحا آخر يضربه بالرصاص ؛ لأن الروح لا تحل إلا فى جسد له مواصفات خاصة .

لكن هناك جوارح يمكن أن تبقى الروح فى الجسم دونها ، والمثال على ذلك اليد ن قطعت ، أما إن توقف قلب الإنسان فقد يشقون صدره ويدلكون هذا القلب ينبض مرة أخرى بشرط أن يكون المخ مازال حيا ، وأقصى مدة لحياة المخ دون هواء سبع دقائق فى حالات نادرة . فما أن يصاب المخ بالعطب حتى يحدث الموت . ولذلك رف الأطباء الموت الإكلينيكى بأنه توقف المخ . إذن فهناك موت ، وهناك قتل ، فى كليهما ذهاب للروح .

وفى الموت تذهب الروح أولاً ، وفى القتل تذهب الروح بسبب نقض البنية . الميتة هى التى ذهبت منها الحياة بدون نقض البنية ، ومن رحمة الله أن حرم الميتة ؛ نها ماتت بسبب لا نراه فى عضو من أعضائها ، حتى لا نأكلها بدائها .

وكذلك حرم الدم ، وهو السائل الذى يجرى فى الأوردة والشرايين ويعطى الجسم دفء والحرارة وينقل الغذاء ، وللدم مجالان فى الجريان ؛ فهو يحمل الفضلات من كلى والرئة ، وهناك دم نقى يحمل الغذاء ، والأوعية الدموية بها لونان من الدم : م فاسد ودم صالح . وعندما نأخذ هذا الدم قد يكون فيه النوع الصالح ويكون فيه ضاً النوع الذى لم تخرج منه الشوائب التى فى الكلى والرئة ، ولذلك يسمونه الدم سفوح ، أى الجارى ؛ وكانوا يأخذونه قديما ويملأون به أمعاء الذبائح ويقومون سيه ويأكلونه .

وهناك دم غير فاسد ، مثال ذلك الكبد ، فهو قطعة متوحدة ، وكذلك الطحال ، لنبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أحلت لكم ميتتان ودمان ، فأما الميتتان : فالسمك والجراد ، وأما الدمان : فالكبد لطحال)[١] .

إذن فالكبد والطحال مستثنيان من الدم ، لكن إذا جئنا للدم المسفوح فهو رام . والحكمة فى تحليل السمك والجراد هى عدم وجود نفس سائلة بها ، فليس

) رواه أحمد وابن ماجه والدارقطنى .

فى لحمها دم سائل ، وعندما نقطع سمكة كبيرة لا ينزل منها دم . بل يوجد فقط عند الأغشية التى فى الرأس ولا يوجد فى شعيراته . وعندما يموت السمك ويؤكل فلا خطر منه ، وكذلك الجراد .

ويأتى بعد ذلك فى سلسلة المحرمات « ولحم الخنزير » . ولا يقولن مؤمن : لماذا حرم الله لحم الخنزير ؟ لقد ذهب العلم إلى كل مبحث ليعرف لماذا حرم الله الميتة وكذلك الدم حتى عرف العلماء أن الله لا يريد أن ينقل داء من حيوان ميت إلى الإنسان ، وكذلك حرم الله الدم لأن به فضلات سامة « كالبولينا » وغيرها .

ولكل تحريم حكمة قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خافية . والقرآن قد نزل على رسول أمى فى أمة أمية لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد ، وطبق المؤمنون الأوائل تعاليم القرآن لأن الله الذى آمنا به إلها حكيما هو قائلها ، وهو يريد صيانة صنعته ؛ وكل صانع من البشر يضع قواعد صيانة ما صنع . ولم نجد صانع أثاث ـ مثلا ـ يحطم دولاب ملابس ، بل نجده باذلا الجهد ليجمل الصنعة ، ومادام الله هو الذى خلقنا وآمنا به إلها ؛ فلا بد لنا أن ننفذ ما يأمرنا به ، وأن نتجنب ما نهانا عنه ، ولا يمنع ذلك أن نتلمس أسباب العلم ، رغبة فى ازدياد أسباب الإيمان بالله ومن أجل أن نرد على أى فضولى مجادل ، على الرغم من أنه ليس من حق أحد أن يجادل فى دين الله ؛ لأن الذى يرغب فى الجدال فليجادل فى القمة أولاً ؛ وهى وجود الله ، وفى البلاغ عن الله بواسطة الرسول ؛ فإن اقتنع ، فعليه أن يطبق ما قاله الله . فالدين لا يمكن أن نبحثه من أذنابه ، ولكن يبحث الدين من قمته . ونحن ننفذ أوامر الله . ولذلك نجد أول حكم يأتى لم يقل الحق فيه : يا أيها الناس كتب عليكم كذا ، ولكن سبحانه يقول : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنت بى خذ الحكم منى .

وأكرر المثل الذى ضربته سابقاً : أثمن ما عند الإنسان صحته ، فإذا تعرضت صحته للاختلال فهو يدرس الأسباب ؛ إن كان يرهقه الطعام يختار طبيبا على درجة علم عالية فى الجهاز الهضمى ، ويكتب الطبيب الدواء ، ولا يقول المريض للطبيب : أنا لن أتناول هذا الدواء إلا إذا قلت لى لماذا وماذا سيفعل هذا الدواء .

إذن فالعقل مهمته أن ينتهى إلى الطبيب الذى اقتنع به ، وما كتبه الطبيب من عاليم فعليك تنفيذها ، وكذلك الإيمان بالله ، فمادام الإنسان قد آمن بالله إلها فعليه ن ينفذ الأوامر فى حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، والمريض لا يناقش طبيبا ، فكيف يناقش أى إنسان ربه : « لم كتبت على هذا » ؟

والطبيب من البشر قد يخطىء ؛ وقد يتسبب فى موت مريض ، وعندما نشك فى قدرة طبيب ما نستدعى عدداً من الأطباء لاستشارة كبيرة . وننفذ أوامر الأطباء ، لا يجرؤ أحد أن يناقش الله سبحانه وتعالى بل نقول : كل أوامرك مطاعة .

إننا ننفذ أوامر الأطباء فكيف لا ننفذ أوامر الله ؟ إن الإنسان يضع ثقته فى البشر الخطائين ، ولا يمكن ـ إذن ـ أن تعلو على الثقة فى رب السماء ؛ لذلك فالعاقلون هم الذين أخذوا أوامر الله وطبقوها دون مناقشة ؛ لأن العقل كالمطية يوصل الإنسان إلى عتبة السلطان ، ولكن لا يدخل معك عليه ، وحين تسمع من الله فأنت تنفذ ما أمر به .

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » وقد أثبتت التحليلات أن بلحم الخنزير دودة شريطية ودودة حلزونية وعددا آخر من الديدان التى لا يقهرها علاج .

والمحرمات من بعد ذلك « وما أهل لغير الله به » أى رفع الصوت به لغير الله كقولهم : باسم اللات والعزى عند ذبحه ، ولا يقال عند ذبحه : « الله أكبر بسم الله » ؛ لأن الإنسان منتفع فى الكون الذى يعيش فيه بالأجناس التى طرأ عليها ، لقد وجد الإنسان هذه الأجناس فى انتظاره لتخدمه لأنه خليفة الله فى الأرض ، والحيوان له روح ولكنه يقل عن الإنسان بالتفكير ، والنبات تحت الحيوان ، والجماد أقل من النبات . وساعة يأخذ الإنسان خدمة هذه المسخرات ، فعليه أن يذكر الخالق المنعم ، وعندما يذبح الإنسان حيوانا ، فهو يذبحه بإذن الأكبر من الإنسان والحيوان والكون كله ، يذبحه باسم الخالق .

إن هناك من ينظر إلى اللحم قائلاً : أنا لا آكل لحم الحيوانات لأنى لا أحب الذبح للحيوان شفقة ورحمة ، لكن آكل النبات . ونقول : لو أدركت ما فى النبات من حياة كنت تمتنع عن أكله ؟ لقد ثبت فى عصرنا أن للنبات حياة ، بل وللجماد حياة أيضاً ؛ لأنك عندما تفتت حصوة من الصوان أو أى نوع من الأحجار ، فأنت تعاند بدقات

المطرقة ما فى تلك الحصوة من تعانق الجزيئات المتماسكة ، وقد تفعل ذلك وأنت لا تدرى أن فيها حياة .

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

والصالحون من عباد الله يعرفون ذلك ويديرون أعمالهم وتعاملهم مع ما سواهم من المخلوقات جميعا - حيوان أو جماد - على أنها مسبّحة لذلك لا يمتهنون الأشياء ولا يحتقرونها مهما دقت وحقرت وإنما يتلطفون معها حتى لو ذبحوا حيوانا فإنهم يرحمون ذلك الحيوان فلا يشحذون ولا يسنون السكين أمامه ولا يذبحون حيوانا أمام حيوان آخر فضلا على أنهم يطعمون ويسقون ما يريدون ذبحه لأنهم يعلمون أنه مسبح ولكنهم فعلوا فيه ما فعلوا لأن الله أباح لهم ذلك ليستديموا حياتهم بأكله فهم أهل تكليف من الله، أما ما عداهم فهم أهل تسخير .

« وما أهل لغير الله به » تشرح لنا أن الحق هو الذى حلل لنا أن نأكل من الذى له حس وحركة ، كالحيوان الذى يتطامن للإنسان فيذبحه ، ولا بد للإنسان أن يعرف الشكر لواهب النعمة ، فـ « بسم الله الله أكبر » تؤكد أنك لم تذبحه إلا باسم من أحله لك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾
وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن فالأكل من ضمن التذليل ، وعندما تذبح الحيوان لا بد ان تذكر من ذلل لك ذلك . ويحرم الحق أكل المنخنقة ، أى الحيوان الذى مات خنقاً ؛ لأن قوام الحياة ثلاثة ؛ طعام ، شراب ، هواء ، وهذا من حكمة الخالق الذى خلق الصنعة ورتب الأمر حسب الأهم والمهم ، فالإنسان قد يصبر على الجوع إلى ثلاثين يوماً ؛ لأن ربنا سبحانه وتعالى قدر لك - أيها الإنسان - ظروف الأغيار ، فجعل فى جسمك مخزونا لزمن قد تجوع فيه ، وجعل للإنسان شهوة إلى الطعام ، وغالبا لا يأكل الإنسان ليسد الرمق فقط ، ولكن بشهوة فى الأكل .

إن ربنا يوضح لنا : أنا أحترم شهوتك للطعام ، ولتأخذ حركتُك الضرورىَّ لها

من الطاقة ، والزائد سيُخزن في الجسم كدهون ولحم ، فإن جاء يوم لا تجد فيه طعا
أخذت من الدهون المخزونة طاقة لك . وهذه من دقة الصنعة ، وإن قارنتها بسيا
صنعها الإنسان إذا ما فرغ منها الوقود فإنها تقف ولا تسير ، أما صنعة الخالق فهي
لا تقف إن توقف الطعام بل تستمر إلى ثلاثين يوماً ، وربما حن على الإنسان قلب
إنسان آخر فأحضر له الطعام ، وربما احتال الإنسان ليخرج من مأزق عدم وجو
الطعام .

إن المرأة العربية وصفت الشدة والعوز فقالت : « سنة أذابت الشحم ، وس
أذهبت اللحم ، وسنة محت العظم » أي أن الأمر درجات ، فالإنسان يتغذى م
دهنه ثم من لحمه ثم من عظامه ، ويصبر الإنسان على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة
وعشرة أيام ، حسب كمية المياه المخزونة في الجسم . أما الهواء فلا يصبر عنه الإنسا
إلا بمقدار الشهيق والزفير ، فإن حُبس الهواء عن الإنسان مات . فالنَّفَس هو أه
ضرورة للحياة ، ولذلك نجد من حكمة الحق سبحانه أنه لم يملّك الهواء لأحد ، لأ
أحداً لو امتلك الهواء بالنسبة لإنسان آخر فقد يمنع عنه الهواء لحظة غضب فتنتهي م
الحياة .

واللغة العربية فيها من السعة ومن دقة الأداء ما يدل على أن هناك أسرا
للمعاني ، تلتقي عند شيء ما ، فمثلاً إذا قلت : نَفْس ، أو نفيس ، أو نَفَس ، نج
أنها ثلاث كلمات مكونة من مادة واحدة هي « النون والفاء والسين » ، النفْس هي
اتصال الروح بالمادة فتنشأ الحياة بها ، ويلهم ربنا النفس فجورها وتقواها
والنَّفَس : وهو الريح تدخل وتخرج من فم وأنف الحي ذي الرئة حال التنفس
ولا تدوم الحياة إلا به ، ومادام أساس الحياة هو النفَس فيجب ألا تكون حياتك
إلا من أجل نفيس ، ويجب أن تحترم خلق الله لك وألا يكون سعيك في الدنيا إلا م
أجل نفيس ، ولا نفيس إلا الإيمان .

وفي اللغة العربية أمثلة كثيرة لما يسمى بالجناس ، فنحن نسمي الأكل في الميعا
« وجبة » ، ونسمي المسئولية « واجبا » ونسمي دقة القلب « الوجيب » . ولذلك
عندما أراد الشعراء أن يتفننوا جاء واحد منهم بلفظين متماثلين ولكل منهما معن
مختلف فقال :

رحلت عن الديار لكم أسير وقلبى فى محبتكم أسير

فأسير فى الشطر الأول بمعنى أمشى ، وأسير فى الشطر الثانى من البيت بمعنى مأسور ومقيد .

فالمنخنقة إذن هى التى منع عنها النفس ، ومادام مَنْع النفس أوصلها إلى الخنق فهى إلى الموت ، فلماذا جاء ذكرها مرة أخرى بعد الميتة ؟ لقد جاء ذكر المنخنقة لأن الإنسان قد يلحقها بالذبح ، فإن سال منها دم ، وطرفت فيها عين أو تحرك الذيل فهى حلال . أما إن لم يلحقها الإنسان وذبحها ولم يسل منها دم فهى حرام ، ويحرم الحق الموقوذة ، وهى البهيمة التى يتم ضربها بأى شىء إلى أن تصل للموت ، فهى قد ماتت ، بنقض بنية وكذلك المتردية التى وقعت من ارتفاع حتى ماتت ، وكذلك « النطيحة » أى التى نطحها حيوان آخر إلى أن ماتت . « وما أكل السبع » وهو ما يبقى من أكل السبع من لحم ما افترسه من حيوان مأكول ، « إلا ما ذكيتم »، والذكاة هى الذبح الذى يسيل منه الدم وتأتى بعده حركة من المذبوح . والمقصود بقوله : « إلاما ذكيتم » هو المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، فإن أدركها الإنسان وذبحها وسال منها دم وصدرت منها حركة فهى حلال .

هذا هو رأى على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وهو مفتى الإيمان . وابن عباس ـ رضى الله عنه ـ وهو حَبْرُ الأمة قال ـ أيضا ـ فى قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الميتة والدم ولحم الخنزير ومقصود به المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وهذا يوضح لنا أن هناك حيوانات شرسة قد لا يقوى الإنسان عليها . وأحياناً قد يقدر الإنسان عليها فيقوم بتكتيفها بالحبال ، وأحيانا يضربها بآلة لتختل وتضعف قليلا ويتملكها الجزار ليذبحها .

ونلاحظ أن الحق لم يحدد الحيز من الجسم الذى أصيبت فيه الموقوذة سواء أكان البطن أم الرأس أم الظهر ، فالحيوان المضروب رميا بالحجارة قد تأتى الأحجار فى الرأس أو البطن أو الظهر ، فمن الجائز أن يضرب الإنسان الحيوان الشرس ليستطيع أن يذبحه .

والحجة عندنا فى التحليل أو التحريم هى : أيسيل منها الدم ساعة الذبح أم لا ؟

وهل يصدر عن جسمها حركة ولو طرفة عين ؟ فإن توافر ذلك في الذبيحة فهو حلال ، وهكذا نعرف أن قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الثلاثة الأو وهي : الميتة والدم ولحم الخنزير ومعها ما أهل لغير الله به لأنه محرم بطبيعة الإيما العقدي .

« وما أكل السبع إلا ماذكيتم وما ذبح على النصب » ويحرم الحق ما أكله السب إلا إذا كان الحيوان الذي أكله السبع لم يمت واستطاع واحد أن يذبحه الذب الشرعي . وسبحانه يحرم ما لم يذبح بالأسلوب الشرعي ، فلا يحل ذَبْح بعظم بِسِنّ والذي ذبح على النصب ، أي المذبوح على الأحجار المنصوبة كالأصنام فه حرام ، والكلام هنا عقدي ، والتحريم هنا بعارض عقدي .

و« النُّصُب » من الألفاظ التي وردت مفرداً ووردت جمعاً . فـ « نصُب » هو جمع ، مثلما نجمع كلمة « حمار » ونقول « حُمُر » ، وفي هذه الحالة يكون مفرد « نِصاب » ، ومرة تكون « نصب » مفرداً ، مثلها مثل « طُنُب » وهو الحبل وجمع « أطناب » أي حبال ، وفي هذه الحالة يكون جمع « نُصُب » هو « أنْصَاب » .

والنُّصُب هي حجارة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الذبائ تقرباً للآلهة . والتحريم هنا بسبب عقدي مثله مثل تحريم ما أهل لغير الله به ، ف أهل لغير الله فيه شرك بالله فافتقد ذكر الله الذي ذلل للإنسان هذا الحيوان القريـ من الإنسان في الحس والحركة وغير ذلك . وكذلك أيضاً ما ذبح على النصب محرم لأن النصب غير واهب ولا معط ، والواجب أن نتقرب إلى الواجد الواهب

« وأن تستقسموا بالأزلام » واستقسم أي طلب القسمة ، وكانت القسمة ف بعض الأحيان عملية محرجة فيريدون إلصاقها بغيرهم ، وهنا يقال : « إن الأزلا هي التي أمرتني » . والأزلام هي قداح من الخشب مكتوب على بعضها : « أمرن ربي » ومكتوب على البعض الآخر : « نهاني ربي » وبعض من هذه القداح غفل بغ كتابة . وكان المشرك إذا أراد السفر فهو يذهب إلى سادن الكعبة أو الكاهن ، ويخر السادن أو الكاهن الأزلام من الكيس ، ويحرك القداح ويختار المشرك قِدْحاً ، فإن ق عليه « أمرني ربي » يسافر إلى المهمة التي يريدها ، وإن لم يقرأ عليه ووجده غفلا فه يعيد الكَرَّةَ ؛ فإن وجد « نهاني ربي » لا يسافر .

ونسأل : من هو الرب الذى أمر ؟ هل هو الرب الأعلى ، أو الرب الذى كانوا يعبدونه ؟ وأى إله كانوا يقصدون ؟ إن كان المقصود به الإله الأعلى ، فمن أدراهم أن الله أمر بهذا السفر أو نهى عن ذلك السفر ؟ إن ذلك كذب على الله . وإن كان الذى أمر هو الرب الذى يعبدونه ، فهذا أمر باطل من أساسه ، إذن فـ « استقسم » أى أنّه طلب حظه وقسمته بواسطة القداح . وكان الاستقسام يتم فى مسائل الزواج أو عدم الزواج ، والكلام هنا فى هذه الآية عن الأكل ؛ فالسياق عن تحليل ألوان الطعام فلماذا هذا الاستقسام ؟

من هذا نعرف أنهم كانوا فى الجاهلية يخضعون للون من الاستقسام بالأزلام ، كانت عندهم عشرة قداح وكان مكتوبا عليها أسماء ، فواحد على سبيل المثال مكتوب عليه « الفذ » وعليه علامة واحدة . أى أن الذى يسحب هذا القدح يأخذ نصيبا واحداً ؛ أما المكتوب عليه « التوأم » فيأخذ نصيبين ، والمكتوب عليه « الرقيب » يأخذ ثلاثة أنصباء ، والمكتوب عليه « الحِلس » يأخذ أربعة أنصباء ، والمكتوب عليه « النافر » يأخذ خمسة أنصباء ؛ والمكتوب عليه « المُسْبل » يأخذ ستة أنصبة ، والمكتوب عليه « المُعلّى » يأخذ سبعة أنصبة ، والباقى ثلاثة أنواع مكتوب على كل واحد منها إما « المنيح » وإمّا « السفيح » وإمّا « الوغد » .

وعندما يقومون بذبح الجمل كانوا يقسمونه إلى ثمانية وعشرين نصيباً بعدد الأنصبة التى ينالها الأشخاص السبعة الأوائل ، أما من خرج لهم « المنيح » أو « السفيح » أو « الوغد » فلا نصيب لهم ويدفعون ثمن الذبيحة .

إذن فقوله الحق : « وأن تستقسموا بالأزلام » أى أن مسألة طلب القسمة بواسطة الأزلام هو أسلوب مجحف وحرام ، وهو لون من الميسر ، والاستقسام بالأزلام خلاف القرعة ، فالقرعة تكون بين اثنين متساويين ولا يريد أحدهما أن يظلم الآخر ، فيخرجا الهوى من الاختيار .

مثال ذلك : اثنان من البشر يملكان بيتاً ، وتحرى كل منهما العدل فى القسمة ويلجآن إلى القرعة بأن يكتب كل منهما اسمه فى ورقة ثم يضعا الورقتين فى إناء ضيق ويحضر طفل صغير لا يعرف المسألة ويغمض عينيه ويشد ورقة من الاثنتين ، فيأخذ كل واحد النصيب الذى حددته القرعة .

ومثال آخر : الرجل المتزوج بأكثر من واحدة ، عليه أن يقرع بين النساء إن أراد صحبة إحداهن فى سفر ، والقرعة هنا حتى لا تغضب واحدة من الزوجات ، وحتى لا يكون الهوى هو الحكم ، وبذلك يخرج من دائرة لوم مَن لا تخرج قرعتها .

ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فعندما أراد صلى الله عليه وسلم ألا يكسر خاطر أى واحد من الأنصار عندما هاجر إلى المدينة ، وتطلع كل واحد من الأنصار إلى أن ينزل رسول الله فى بيته ، وحاول كل واحد أن يمسك بزمام الناقة وأن يجعلها تقف أمام بيته ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خلوا سبيلها فإنها مأمورة)[1] .

فعندما تميل الناقة وتقف عند أى بيت لن يقول أحد : إن النبى آثر فلاناً على فلان . جعلها الرسول فى يد من لا يقدر أحد على أن يخالفه عليه ، وكذلك الاستخارة غير الاستقسام . إذن فالاستقسام بالأزلام هو المحرم شرعاً ؛ لأنها عملية غير مناسبة وهى ظالمة ، ووردت هنا فى سياق ألوان الطعام .

ويقول سبحانه عن كل تلك الألوان من المحرمات ؛ إنَّ ارتكابها فسق . « ذلكم فسق » والفسق هو الخروج عن الطاعة . والمعانى ـ كما علمنا من قبل ـ مأخوذة من المحسّات ؛ لأن إلف الإنسان فى أول إدراكاته بالمحسات ، فهو يرى ويسمع ويشم ، وبعد ذلك تأتى الأمور العقلية .

وأصل الفسق هو خروج الرطبة عن قشرتها ؛ فالبلحة عندما ترطب تنكمش الثمرة داخل القشرة وتخرج منها عندئذ يقال : « فسقت الرطبة » أى خرجت من قشرتها ، وكذلك من يخرج عن منهج الله يسمونه فاسقاً ؛ تماماً مثل الرطبة ، وفى هذا رمزية تدل على أن شرع الله سياج يحيط بالإنسان ؛ فالذى يخرج عن منهج الله يكون فاسقاً . وإياك أيها المسلم أن تخرج عن شرع الله ؛ لأن الرطبة عندما تخرج عن القشرة فالذباب يحوم حولها ويصيبها التراب وتعافها النفس ، فكان دين الله كإطار يحمى الإنسان بالإيمان .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، وأخرجه ابن كثير فى البداية والنهاية ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى .

وهذه الأحكام كلها تبنى قضية الدين ، قضية عقدية فى الألوهية ، قضية البلاغ عن الألوهية بواسطة الرسالة . وأحكام تنظم حركة المجتمع بالعقود والأمانات والأنكحة وغيرها ، كل هذه الأحكام تصنع هيكل الدين العام . وقد مر هيكل الدين العام بمرحلتين : المرحلة المكية وكان كل هدفها التركيز على العقيدة والإيمان بوحدانية الله والنبوات والبلاغ عن الله ، وبعد ذلك فى المرحلة المدنية جاءت سورة النساء وسورة المائدة لتتكلما عن الأحكام .

وبالعقيدة وبالبلاغ عن الله وبالأحكام يكتمل الدين ؛ لذلك يقول الحق : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » كأن الكافرين كان لهم أمل فى أن يحبطوا هذا الدين وأن يبطلوه وأن ينقضوه ، وكذلك المؤمنون بأديان سابقة أو بكتب سابقة كانوا يحبون أن يطرأ على القرآن الأفعال التى مارسوها مع كتابهم من النسيان والترك والتحريف ، وسبحانه هو القائل عن أصحاب الكتب السابقة :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

إذن فقد أرادوا أن ينسى المسلمون ـ أيضاً ـ حظاً من القرآن ، لكن الحق يخبر بأنهم يئسوا أن ينسى المسلمون حظا مما ذكروا به ؛ لأن الصحابة حفظوا القرآن فى الصدور وكتبوه فى السطور ومن لسان الرسول مباشرة . ولم يحدث مثلما حدث مع الرسل السابقين . فقد تم تسجيل هذه الكتب المنزلة عليهم بعد ثلاثة أو أربعة قرون ، بل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن من فور نزول كل نجم من الآيات ، وكان يأمر بوضع الآيات بترتيب معين .

إن على الذين كفروا أن ييأسوا من أن ينسى المسلمون حظاً مما ذكروا به . وهؤلاء القوم من أهل الكتاب لم ينسوا حظاً مما ذكروا به فقط ، بل أيضاً حرفوا الكتاب عن مواضعه وكتموا ما أنزل الله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة البقرة)

وهم يئسوا من أن يكتم المسلمون ما أنزل الله ، بدليل أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان يأتى بحكم فى شىء ، ثم يغير الله ذلك الحكم ، فلا يستحى رسول
الله أن يبلغ : أن الحكم الذى قلته لكم قد غيره الله لى . وهل يستنكف أن يعدل الله
؟وهذا دليل على أمانة البلاغ عن الله ؛ لذلك يئس الكافرون بألوانهم المختلفة من
أن ينسى المؤمنون حظا مما ذكروا به ؛ لأن تسجيل القرآن كان أمينا بصورة لا نهاية
لها ، وظل القرآن مكتوباً فى السطور ومحفوظاً فى الصدور .

والحق يعلن عن يأس الكفار من مشركين وأهل كتاب بقوله : « اليوم يئس الذين
كفروا من دينكم » يئسوا لأن المراحل التى مرت بالكتب السابقة لن تمر بهذا الدين .
فقد توهم أهل الكتاب أن الإسلام سيمر بما طرأ عليهم ، وظن بعضهم أن المسلمين
سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب من ترك لدينهم وإهدار له . وكذلك ظن
بعض كفار قريش أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب ، فقد كانت
عندهم التوراة وهم مع ذلك لا يتبعون كتابهم ، فيرد الحق على كل هؤلاء : اليوم
يئس الذين كفروا من دينكم » .

وقوله : « اليوم » يعنى الزمان الذى مضى والزمان المستقبل ، فقد أتم الله دين
الإسلام ورضيه لنا وفتحت مكة للمسلمين ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وصار
القرآن مكتوباً ومحفوظاً . وبذلك تأكد يأس الكافرين والمشركين أن يُنسى القرآن أو
أن يُكتم القرآن ؛ لأن من أنزل عليه الكتاب ، كان إذا جاء أمر يتعلق به فهو
يقوله . وعندما مال قلب المسلمين ذات مرة إلى تبرئة المسلم الذى سرق وأن تلصق
التهمة باليهودى البرىء ، هنا نزل من القرآن قوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ
خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد أمر الحق أن يكون النبى هو الحكم العدل حتى ولو كان حكماً ضد مسلم .
ويأمر الحق رسوله أن يستغفر الله إن كان قد ألم به خاطر أن ينصر المسلم الخائن على
اليهودى الذى لم يسرق ، إنها سماحة دين الإسلام .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » . ولقد تم دين الله . ودخل الناس إلى الإسلام أفواجا . ولن يُنسى القرآن . ولن يكتم القرآن أحد . ولن يحرف القرآن أحد . ولن يحدث للقرآن ما حدث للكتب السابقة من نسيان وكتمان وتحريف ، أو الإتيان بأشياء أخرى والقول والزعم بأنها من عند الله ، وهى ليست من عند الله . إذن فقد يئس الذين كفروا من أن يتزيد المسلمون فى دينهم . ولن توجد بين المسلمين تلك المثالب والعيوب التى ظهرت فى الأقوام السابقة .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » لقد يئسوا من أن يُغلب الإسلام ، بل إن الإسلام سَيَغْلب . وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم » وقد حكم سبحانه ألا يأتى أمر يحقق لأعداء الإسلام الشماتة به ، أو أن تتحقق لهم الفرصة فى انكسار الإسلام ، فلا تخشوهم أيها المسلمون لأنكم منصورون عليهم ، ولن تدخلوا فى أسباب الخيبة التى دخلوا فيها . وعليكم أيها المؤمنون بخشية الله .

ولو أراد أحد تغيير شىء من منهجه سبحانه فسيلقى العقاب ، وسبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فكتاب الله معكم وترك فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهجه ، فإن خالفتم المنهج فستتلقون العقاب ، كما هزم الله المسلمين فى أُحُد أمام المشركين لأنهم خالفوا المنهج . فما نفعهم أنهم كانوا مسلمين منسوبين للإسلام بينما هم يخالفون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فلا خشية من المسلمين لأعدائهم . ولكن الخشية تكون لله ، فإن خفتم فخافوا الله وحافظوا على تنفيذ منهج الله . ومادام سبحانه هو الآمر : لا تخش أعداء الله لأنه زرع فى قلوبهم اليأس من أن ينسى المسلمون المنهج ، أو أن يتزيدوا فى الدين ، أو يكتموا الدين ، فهم لا يحرفونه ولا يزيدون فيه . إذن فالعيب كل العيب ألا تطبقوا منهج الله .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » والإكمال هو أن يأتى الشىء على كماله ، وكمال الشىء باستيفاء أجزائه ، واستيفاء كل جزء للمراد منه . وقد أتم الله استمرار النعمة بتمام المنهج .

لقد رضى الحق الإسلام ديناً للمسلمين . ومادام رضى سبحانه الإسلام منهجاً، فإياكم أن يرتفع رأس ليقول : لنستدرك على الله ؛ لأن الله قال : « أكملت » فلا نقص . وقال : « أتممت » فلا زيادة . وعندما يأتى من يقول : إن التشريع الإسلامى لا يناسب العصر . نرد : إن الإسلام يناسب كل عصر ، وإياك أن تستدرك على الله ؛ لأنك بمثل هذا القول تريد أن تقول : إن الله قد غفل عن كذا وأريد أن أصوب لله ، وسبحانه قال : « أكملت » فلا تزيد ، وقال : « أتممت » فلا استدراك ، وقال : « ورضيت » فمن خالف ذلك فقد غَلَّب رضاه على رضا ربه .

إن الخالق سبحانه هو أعلم بخلقه تمام العلم ، ويعلم جل وعلا أن الخلق ذو أغيار ، وقد تطرأ عليهم ظروف تجعل تطبيق المنهج بحذافيره عسيراً عليهم أو متعذراً فلا يترك لهم أن يترخصوا هم ، بل الذى يرخص ، فلا يقولن أحد : إن هذه مسألة ليست فى طاقتنا . فساعة علم الحق أن هناك أمراً ليس فى طاقة المسلم فقد خففه من البداية . ومادمنا ذوى أغيار ، وصاحب الأغيار ينتقل مرة من قوة إلى ضعف ، ومن وجود إلى عدم ، ومن عزة إلى ذلة ؛ لذلك قدر سبحانه أن يكون من المؤمنين بهذا المنهج الكامل من لا يستطيع القيام لمرض أو مخمصة ، فرخص لنا سبحانه وتعالى : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » .

إذن فالحق قد ذكر أن شيئاً من الأغيار قد يطرأ على النفس البشرية ، ومادام استبقاء الحياة يتطلب القوت ، والإنسان قد يمر بمخمصة وهى المجاعة التى تسبب الضمور فى البطن ، هنا يرخص الحق للجائع فى مخمصة أن يأكل الميتة أو ما فى حكمها بشرط الاضطرار لاستبقاء الحياة ، فلا يقول واحد على سبيل المثال :

أنا مضطر لأن أتعامل مع البنك بالربا لأنى أريد أن أتاجر فى مائة ألف جنيه وليس معى إلا ألف جنيه . وهذا ما هو حادث فى كل الناس . هنا أقول : لا . عليك بالتجارة فى الألف التى تملكها ولا تقل أنا مضطر للتعامل فى الربا . فالمضطر هو الذى يعيش فى مجاعة وإن لم يفعل ذلك يموت أو يموت من يعول . وقد رخص الشرع للإنسان الذى لا يملك مالاً أن يقترض من المرابى إن لم يجد من يقرضه ليشترى دواء أو طعاماً أو شيئا يضطر إليه لنفسه أو لمن يعول . والإثم هنا يكون على المرابى ، لا على المقترض لأنه مضطر .

ولذلك قال الحق : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم » ، أى أنه كاره للإثم وإن ذهب إليه . ولذلك يباح للمضطر على قدر دفع الضرورة . لدرجة أن رجال الشريعة قالوا : إن على الإنسان المضطر ألا يأكل من الميتة أو ما فى حكمها بالقدر الذى يشبع ، بل يأخذ أقل الطعام الذى يمسك عليه رمقه ويبقى حياته فقط . فإذا كان يسير فى الصحراء فعليه ألا يأخذ من الميتة أو ما فى حكمها إلاَّ قدراً يسيراً لأنه لا يجد شيئاً يتقوت به .

إذن فمعنى اضطر فى مخمصة شرط أن يكون غير متجانف لإثم ، أى لا يكون مائلاً إلى الإثم فرحا به ، فعليه ألا يأخذ إلا على قدر الضرورة . ومادام على قدر الضرورة فهو لن يحمل معه من هذه الأشياء المحرمة إلا ما يقيم أوده ويمسك روحه . والمضطر هو من فقد الأسباب البشرية . وسبحانه وتعالى قد بسط أسبابه فى الكون ومد بها يديه إلى خلقه ، وأمر الأسباب : استجيبى لهم مؤمنين كانوا أو كافرين ، فالذى يزرع ويحسن الزراعة والرى والبذر والحرث فالله يعطيه ، والذى يتقن عمله كتاجر تتسع تجارته وتزيد أرباحه .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

إن عطاء الأسباب هو عطاء الربوبية . والمضطر هو من فقد أسبابه . ولذلك فالحق يجيب المضطر إذا دعاه . وقد يقول قائل : إننى أدعو الله ولا يجيبنى . ونقول : إنك غير مضطر لأنك تدعو ـ على سبيل المثال ـ بأن تسكن فى قصر بدلاً من الشقة التى تسكنها ، وأنت تدعو بأن يعطيك الله سيارة فارهة وأنت تملك وسيلة مواصلات عادية . فالمضطر ـ إذن ـ هو الذى فقد الأسباب ومقومات الحياة .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وقد ضربنا من قبل المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ بتاجر يستورد بضائع تصله من الخارج فى صناديق ثقيلة . تحملها السيارات الضخمة ، ويقوم أحد العمال أمامه بحمل صندوق ضخم ، فغلب الصندوق العامل . وهنا يقفز التاجر ليسند العامل .

وهذه هي المساندة في المجال البشري ، إذن فلا يَردّ واحد أسبابَ الله من يده ويقول من بعد ذلك : يارب أعني ؛ لأن الله في تلك اللحظة يوضح للعبد : إنّ عندك أسبابي ومادامت أسبابي موجودة ، فلا تطلب من ذاتي إلا بعد أن تنفد أسبابي من عندك ؛ لذلك يباح للمضطر أن يأخذ القدر الذي يردّ به السوء عن نفسه .

« فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » ومادام سبحانه قد رخص لنا ذلك ، فما الداعي أن يذيل الآية بمغفرته ورحمته ؟ ولنفهم أن الإنسان يأخذ الغفر مرة على أنه ستر العقاب عنه ، وقد يكون الغفر ستر الذنب عن العبد لأن الله رحيم . وهذا ما يشرح لنا ما قاله الحق لرسوله :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الفتح)

فسبحانه يغفر بستر العقاب ، ويقدم الغفر لستر الذنب فلا يقارفه الإنسان ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾

فبعد أن بين الحق ما حرم وما أحل ، نجد أن المحَلَّلَ غير محصور ، بل المحصور هو المحرم ؛ لأن الحق حينما حرم عشرة أشياء ، فإن هذه الأشياء العشرة ليست هي كل الموجودات في الكون ، فالموجودات في الكون كثيرة . وسبحانه وتعالى حين خلق آدم وجعله يتناسل ويتكاثر للخلافة في الأرض ؛ قدر في هذه الأرض مقومات استبقاء الحياة لذلك النوع .